

## خطاب «الوحدانية» في عصرنا...! هل سيستسلم العالم؟

محمد عابد الجابري

مفكر عربي من المغرب.

### - ١ -

يبدو أن عصرنا يتميز بطابع فريد لم يشهده التاريخ من قبل، طابع يمكن وصفه أو تسميته بـ «الوحدانية». فمنذ انهيار الاتحاد السوفياتي الذي كان «يتقاسم» العالم مع المعسكر الرأسمالي الغربي، حلت «الوحدانية» محل التعدد، ليس فقط على مستوى الصراع بين «الشرق» و«الغرب»، بل أيضاً على مستوى كل منهما، ذلك أنه لا المعسكر الشيوعي ولا المعسكر الرأسمالي كان واحداً موحداً، بل لقد كان كل منهما متعددًا: كان كل منهما عبارة عن تحالف بين أطراف يجمع بينها «العداء» للمعسكر الآخر، ولكن مع الاختلاف حول الدوافع والأهداف وطريقة خوض الصراع والحدود التي يجب أن يقف عندها. وأكثر من ذلك، كان هناك داخل كل معسكر صراع يزداد مع الأيام نمواً واستفحالا: فداخل الكتلة الشيوعية كان الاتحاد السوفياتي شيئاً، وكانت الصين شيئاً آخر... وداخل المعسكر الرأسمالي الغربي كانت الولايات المتحدة شيئاً، وكانت الاقطار الأوروبية شيئاً آخر: كانت الولايات المتحدة تقاتل بمفردها في كوريا الجنوبية وفي فيتنام وفي أمريكا الجنوبية... الخ، وكانت فرنسا تقاتل بمفردها في الهند الصينية، ثم في المغرب العربي... الخ. وكان موقف الولايات المتحدة من الصراع العربي - الإسرائيلي يختلف - على الأقل من حين إلى آخر - عن موقف كل من فرنسا وبريطانيا اللتين لم تكونا دائماً على خط واحد، لا في هذا الصراع ولا في غيره من الصراعات الدولية...

وعندما انهار الاتحاد السوفياتي تطورت الأمور عكس ما كان متوقعاً، على الأقل على مستوى المنطق! ذلك أن اندحار العدو المشترك ينتج منه عادة انحلال عرى التضامن والتحالف، وانتشار التعدد واستفحال الخلاف، في الطرف الذي كان يصارعه. ولكن الذي حدث هو العكس! لقد دخل الجميع تحت «جلباب العم سام». وهكذا فـ «القطب الواحد» الذي كان من المتوقع أن يكون متعددًا أكثر من ذي قبل، أصبحت «الواحدية» فيه «وحدانية»! لم يعد فيه «الرأي» يراعي «الرأي الآخر»، بل أصبح «الرأي الأمريكي» يمثل

«الرأي الوحيد»، وذلك إلى درجة أن الرئيس بوش الحالي لم يتردد في رفع شعار: «من ليس معنا فهو ضدنا»؟! ليس معنا فهو ضدنا»؟! ليس معنا فهو ضدنا»؟!

واتسع نطاق هذه «الوحدانية» لتفرض نفسها على الخطاب السياسي المعاصر بأكمله، وفي كل مجال. وفي ما يلي أمثلة:

- فعبارة «هيئة الأمم المتحدة» التي كانت تحتل حيزاً مهماً في الخطاب العالمي، وبالتالي تحظى بنوع من الاعتبار، حلت محلها عبارة «المجتمع الدولي»، وكأن أمم الأرض قد اتحدت وكونت «مجتمعاً» واحداً أو «جماعة» واحدة! لقد أصبحت «هيئة الأمم المتحدة» اليوم أشبه ما تكون بقطار قديم أدخل مرأب العربات القديمة التي تترك للصدأ ينخر كيائها. لقد تركت مكانها لـ «قطار» جديد اسمه المجتمع الدولي («المجتمع» مفرد، بينما «الأمم» جمع). والفرق من الناحية السياسية واضح: «الأمم» تضم مجموعة من الدول والحكومات، ولا يتصور وجود أمم عليها حكومة واحدة، وبخاصة في الخطاب السياسي الغربي الذي يقترن فيه اسم الأمة بالدولة (الدولة/ الأمة Etat-Nation). أما «المجتمع» فهو يحتمل دولة واحدة بلغ التعدد فيها ما بلغ (كالهند مثلاً). «المجتمع الدولي» عبارة توحى بوجود دولة واحدة على رأسه، وتحيل عليها. أما اسمها فمعروف: إنها «الولايات المتحدة»، التي أصبح اسمها ينطق من دون إضافة لفظ «أمريكية»، ليرتك المجال للفظ آخر لا ينطق ولكنه يفهم: لفظ «الدولية»، فتصبح العبارة المخفية هكذا: «الولايات المتحدة الدولية» رئيسة «المجتمع الدولي».

- ليس هذا مجرد لعب بالألفاظ، بل إنه التعبير الصريح عن الحقيقة الملموسة، عن الواقع القائم الآن. يكفي للبرهنة على ذلك برهنة وجودية أن نشير إلى أنه في أيامنا هذه كثيراً - بل غالباً إن لم يكن دائماً - ما يحدث أن تصوت «الاجلبية الساحقة» في هيئة الأمم المتحدة لفائدة قرار ما، ولكن يكفي أن تعترض عليه الإدارة الأمريكية ليقال إن «المجتمع الدولي» يرفض ذلك! لقد كان ما يلفت النظر في «هيئة الأمم المتحدة»، قبل عقد من السنين، هو ارتفاع عدد الدول الأعضاء فيها بانضمام الدول المستقلة حديثاً، وذلك إلى درجة أن كثيراً من المحللين الاستراتيجيين لم يترددوا آنذاك في القول إن السياسة العالمية ستصبح في أيدي «الدول السائرة في طريق النمو»، لكونها أكثر عدداً في «هيئة الأمم المتحدة». أما ما نراه اليوم فهو أن هذه الكثرة من «الدول السائرة في طريق النمو» قد أصبحت أصفاراً على يسار العدد «واحد». أما بقية الدول، وأعني الدول النامية المتقدمة المصنعة، سواء كانت من الشرق أو من الغرب، فهي فعلاً على يمين العدد «واحد»، ولكن بعد الفاصلة. إنها مجرد كسور عشرية للواحد الأحد.

- وأما «مجلس الأمن الدولي» الذي كرس التعدد في كيانه منذ تأسيسه، بالاعتراف بحق النقض - للأربعة الكبار على الأقل - فقد صار الكلام عنه بعبارة «مجلس الأمن» فقط. إن إسقاط لفظ «الدولي»، في عبارة «مجلس الأمن الدولي»، يفسح المجال للفظ «القومي» في عبارة «مجلس الأمن القومي» (الأمريكي)؛ وهكذا فحذف «الدولي» من الأولى هو من أجل «القومي» (الأمريكي) في الثانية. والأمن الدولي والأمن القومي (الأمريكي) في هذه الحالة، يتماهيان، أعني أنهما يقدمان بوصفهما يحيلان على ماهية واحدة!

- وبما أن الألفاظ والعبارات يستدعي بعضها بعضاً، فلنفسح المجال لعبارة «المصالح القومية الأمريكية في العالم» التي يرعاها «مجلس الأمن»، في معناه الأحادي الأخير.

العبرة في ذاتها تحمل تناقضاً، ذلك أن «المصالح القومية» في معناها اللغوي، «مصالح وطنية»، أي مصالح تخص الوطن. ولكل وطن مصالحه. أما عبارة «مصالح وطنية في العالم»، فهي عبارة عدوانية لأنها تنطلق من كون العالم عبارة عن فضاء خال من الأوطان. والحروب في تاريخ البشرية كانت كلها تقريباً بسبب هذا النوع من العدوانية التي كان يطلق عليها قبل عقد من السنين لفظ «الإمبريالية»، وقد أبعد هو الآخر من قاموس الخطاب السياسي المعاصر، تماماً كما أبعدت عبارة «ما وراء البحار»، التي كانت توظف في المعنى نفسه: كانت الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر (فرنسا وبريطانيا بخاصة) تتحدث عن «مصالح... فيما وراء البحار»، وباسم هذه «المصالح» خاضتا حروبهما الاستعمارية. ومع ذلك لا بد من إبراز الفرق بين العبارة التي تستعملها الإدارة الأمريكية (أعني «المصالح القومية» في العالم) والعبارة التي كانت تستعملها الدول الاستعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين. كانت فرنسا تتحدث عن «المصالح الفرنسية فيما وراء البحار»، وكانت بريطانيا تتحدث عن «مصالح المملكة المتحدة في ما وراء البحار» وهكذا. وإذا لم تخني ذاكرتي، فلم تستعمل أي منهما عبارة «المصالح القومية فيما وراء البحار»، وإذا استعملت هذه العبارة في وقت ما فذلك لم يكن القاعدة، كما هو الشأن اليوم بالنسبة إلى عبارة «المصالح القومية الأمريكية في العالم»!

- ومن اللفاظ التي تحتل الصدارة اليوم، في قاموس الخطاب السياسي الأحادي السائد، لفظ «الإرهاب»! لقد تمت «عولمة» هذا اللفظ، ليس فقط من خلال نشره وتعميمه كسلعة خطابية (بكسر الخاء) عبر العالم، كما هو شأن أكلة «ماكدونالد» مثلاً، بل أيضاً من خلال تحويل العالم بأسره إلى فضاء لظاهرة واحدة: الإرهاب. وهذا مفهوم. فالطرف الذي يتحدث عن «مصالح قومية» في العالم وعن ضرورة حمايتها لا يمكن أن ينشر شيئاً آخر غير الإرهاب، إرهاب مضاعف: إن عبارة «المصالح القومية في العالم» عبارة عدوانية كما قلنا، وبالتالي فاستعمالها واتخاذها كشعار يرهب العالم كله: أمما ودولاً وشعوباً. فـ«المصالح في العالم» لا تتصور إلا على حساب مصالح بلدان العالم، وبالتالي لا يستقيم أمرها إلا بحمايتها: إما بالتهديد، وإما بـ«الاحتواء»، وإما بـ«الضربات الرادعة»... الخ، وكلها إرهاب! إرهاب يحمي الإرهاب.

## - ٢ -

الإرهاب بهذا المعنى يلغي نقيضه الذي هو «المقاومة». وكما هو معلوم ومفهوم في جميع اللغات، يدل لفظ «الإرهاب» على فعل، فعل الإرهاب، كما يدل «الضرب» على فعل الضرب. هذا بينما يدل لفظ «المقاومة» على «رد الفعل». فالمقاومة لا تتصور إلا كرد فعل دفاعي ضد العدوان، ضد الظلم، ضد الاحتلال... الخ. أجل، يشترك الإرهاب والمقاومة في أن كلا منهما يمارس العنف بشكل ما. غير أن ممارسة العنف في حال الإرهاب تكون ابتداء، أما في حال المقاومة فالعنف هو لرد العنف، هو شيء مشروع، إنه دفاع عن النفس، رد للظلم.

هذا التمييز بين الإرهاب والمقاومة يرفضه «الرأي الوحيد» السائد. ومن الطبيعي أن يرفضه لأنه إنما يمارس وحدانية الرأي باللجوء إلى الإرهاب. لقد قامت محاولات عديدة على مستوى المؤسسات الدولية تدعو إلى التمييز بين الإرهاب والمقاومة، فكان رد

فعل «الرأي الوحيد» أن هذا نوع من التزكية للإرهاب! وقامت أصوات عديدة تنادي بضرورة وضع تعريف لـ«الإرهاب»، فكان رد فعل الرأي الوحيد أن «الإرهاب هو الإرهاب» بناء على: «كل من ليس معنا فهو إرهاب».

\* \* \*

وبعد فأوجه الشبه بين مفهوم الإرهاب عند كل من الإدارة الأمريكية الحالية وحكومة إسرائيل الحالية لا تحصى ولا تحتاج إلى عدد... لنقتصر فقط على وجه شبه واحد:

شارون يريد أن يقضي على «الإرهاب» باقتحام الضفة والقطاع بدباباته وجنوده، مقتنصاً معتقلاً محرقاً مهدماً مخرباً... ولكن هل نجح بحمل الشعب الفلسطيني على الاستسلام؟ إنه حتى لو ألقى جميع قنابله الذرية على الفلسطينيين، فإن الذين سيقون على قيد الحياة، مرضى أو مشوهين أو أصحاء، سيتابعون الانتفاضة أو يستأنفونها... هذا لا شك فيه!

فهل ستنتج الحرب على «الإرهاب» في جميع أنحاء المعمور؟ أكيد أن الطرف الذي يخوض هذه الحرب لديه من القنابل الذرية ما سيمكّنه من أن يفعل في أقطار العالم ما يمكن لإسرائيل أن تفعله في مدن وقرى فلسطين. ولكن هل سيستسلم العالم؟ □

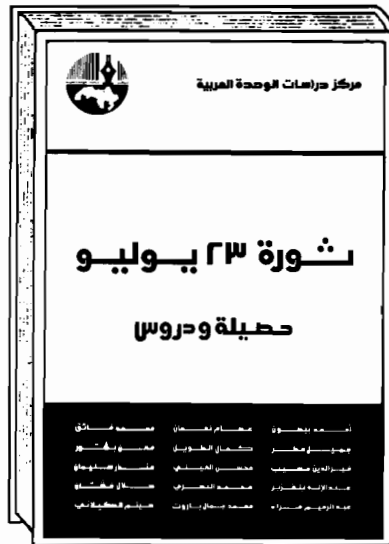
## صدر حديثاً

### ثورة ٢٣ يوليو حصيلة ودروس

#### ندوة

هو حصيلة وقائع ندوة عقدها المركز بمناسبة مرور نصف قرن على قيام الثورة. وقد شارك فيها مجموعة من المفكرين والممارسين والمعنيين بالحدث.

ويتضمن الكتاب تقويماً لثورة ٢٣ يوليو من مختلف جوانبها. وقد وفر المركز للمشاركين في النقاش حرية التعبير عن الرأي من دون قيود، وقد اختار المركز أن ينشر بأمانة آراء جميع المشاركين من دون تحفظ إلا ما أبدوه هُـم من تحفظ في نشر ما لم يودوا نشره.



١٥٠ صفحة

الثمن: ٤ دولارات  
أو ما يعادلها